تاريخ المدرسة الأدبية الشكلية ومنهجها التحليلي

عبد الحليم كبوط

المدرسة العليا للأساتذة * قسنطينة * الجزائر

ملخص

ظهرت المدرسة الأدبية خلال القرن العشرين في كل من أوروبا وأمريكا، متأثرة بالمدارس الغربية التي سبقتها كالشكلية والأسلوبية والشعرية، ومدرسة التلقي والنقد الجديد. وقد وضعت منهجا تحليليا جديدا فهي: عملية تحليلية يقصد منها دراسة النصوص في منأى عن مراجعها، دون إغفال تلك السياقات؛ بمعنى قراءتها داخل بنية النص الأدبية وهكذا فالدراسة الأدبية لا تتجاوز النص الأدبي بل تغوص في أغواره لتقتلع الأصناف الدلالية المرجعية والخصائص الأسلوبية التي تمتلك صفة المثال أو النموذج، وهذا هو موضوع الأدبية الذي حدده رومان جاكوبسون لما قال: ليس الأدب في عمومه ما يمثل موضوع علم الأدب إنما موضوعه الأدبية أي ما يجعل من أثر ما أثرا أدبيا.

Abstract

Literariness appeared in the twentieth century in Europe and America, influenced by Western schools such stylistic poetic formalism, reception theory and the New Criticism. It has developed a new method of analysis : an analysis process that aims to study texts outside their frame of reference, without losing sight of those contexts, i.e. to read them along the literary text structure and thus the study of literature does not exceed the literary text, but delves into the depths to uproot stylistic and semantic reference features that can be examples or models, and that is what Roman Jacobson meant when he said: it n is not literature in general which is the subject of literature, but a theme of literariness is what makes the impact of what a literary effect.

أولا : مفهوم الأدبية (La littérarité):

1/ تعريف الأدبية: لفظ الأدبية في اللغة نسبة إلى الأدب من الفعل أَدُبَ، يَأْدُبُ، أدبا أي ظرُف ولطُف، والأدب هو مجمل الفكر الإنساني البشري معبر عنه بالأسلوب الفني الجميل.

وفي الاصطلاح: الأدبية منهج تحليلي يقصد بها عموما دراسة النص الأدبي فهي منهج جديد: "ونظرية علمية شمولية تطبيقية، وتوجها محدثا في تحليل النصوص الأدبية بغية الوصول إلى الطريقة المثلى التي تكشف طاقة النص المتفردة"[1].

2/ الأدبية وتحليل النصوص:

والنص بالمفهوم الحديث كما يستخدمه كثير من نقاد الأدبية- "يشير إلى عمل فني مثل الروايات والمسرحيات، والقصص القصيرة والرسائل والإعلانات والأفلام وبرامج التلفزيون والكرتون...إلخ. أما هوية النص التي يتساءل عنها الكثير لا سيما في النصوص التي تعالج الحياة اليومية الممتدة إلى عشرات السنين[2] كالروايات الضخمة والقصص الطويلة، والرسائل الموسوعية فالتساؤل المطروح هنا هو:

ـ أين يقع النص في مثل هذه الأعمال الممتدة عبر السنين؟ هل هو العمل في مجمله؟ أم في جزء منه؟ بمعنى هل هو الرسالة بأكملها أو جزء منها؟

ففي قصص ألف ليلة وليلة ـ مثلا ـ كل باب يؤدي إلى الذي يليه في تعالق مستمر فكأنه عبارة عن نصوص موجزة، وفيها لا توجد تجزئة إذ تتناسخ الخطوط القصصية والسردية معا، لكن هناك توجد بدايات ونهايات منفصلة لحكايات معينة، فهل ألف ليلة وليلة نص واحد؟ أم عدة نصوص مشكلة لمسلسل هو عبارة عن قصة طويلة أو رواية؟

ومن خلال الإجابة عن هذا السؤال نبين هوية العمل الأدبي لأن هذا التساؤل من صميم بحوث الأدبية، والتي هي كذلك "عملية تحليلية يقصد منها دراسة النصوص في منأى عن مراجعها، دون إغفال تلك السياقات، بمعنى قراءتها داخل بنية النص الأدبية، وهكذا فالدراسة الأدبية لا تتجاوز النص الأدبي بل تغوص في أغواره لتقتلع الأصناف الدلالية المرجعية والخصائص الأسلوبية التي تمتلك صفة المثال أو النموذج، وهذا هو موضوع الأدبية الذي حدده رومان جاكبسون لما قال: "ليس الأدب في عمومه ما يمثل موضوع علم الأدب، إنما موضوعه؛ الأدبية، أي ما يجعل من أثر ما أثرا أدبيا"[3].

وهذا لأن الأدبية وليدة التفكير النقدي النامي مع مسارين نقديين لعبا دورا فعالا في تشكيل الإطار المفهومي للأدبية.

فالمسار الأول هو الدراسة الواقعية التي لا تقرأ في النص إلا مرجعه، فهي تبالغ ليصل بها منطق هذه المبالغة إلى إلغاء المسافة بين النص ومرجعه، في اتجاه المرجع (الواقع) الذي تغيب فيه ومعه خصوصية النص، فهذه القراءة الهزيلة جعلتها عاجزة على إدراك أدبية النص، رغم أنها ترمي إليها.

أما المسار الثاني فيتجسد في مجموع البحوث النقدية الحديثة (الشكلية، والبنيوية والشعرية) التي جعلت قاسمها المشترك هو عزل النص عن مرجعه لتحديد أدبيته، مبرمجة بحثها هذا تحت مفهوم الشعرية، وهكذا يصل بها منطق هذه المبالغة إلى إلغاء المسافة بين النص ومرجعه في اتجاه النص الذي تغيب شكليته[4].

فمن خلال هذه المكاشفة التاريخية للأدبية، وتحديد موضوعها، نستكشف حقيقة هذا المنهج التحليلي الجديد الذي يسعى جاهدا إلى الوصول إلى "هذا الثابت المتغير الذي نستكشفه بالتركيز على القول الأدبي مأخوذا في حقله، مع شرعية استعارة أدوات القول العلمية الحديثة (اللسانيات، علم المعاني...الخ)"[5] ولذلك قام البحث النقدي النامي المذكور آنفا بعملية ممازجة بين الاتجاه المرجعي والاتجاه النصي لا للتوفيق بينهما بل للسعي لتطوير بحثه في النصوص لمعرفتها الدقيقة في بنيتها الأدبية"[6] وبذلك قامت الشعرية بتحديد دقيق لمفهوم النقد الجديد الموسوم بالأدبية في القرن العشرين في كل من أوربا وأمريكا حيث أصبحت فعلا علما تطبيقيا مستقلا له منهجه الخاص به في تحليل النصوص ودراستها.

3/ منهج الأدبية الشكلية النقدي:

ورثت الأدبية هذا المنهج الخاص بها في تحليل النصوص ودراستها عن المدارس التي سبقتها، خاصة المدرسة الشكلية (La formalism) فكان منهجها شكليا كباقي مناهج المدارس النقدية التي جاءت من بعده، وبذلك فلم تكن الأدبية في منأى عن استخدام هذا المنهج، ولم يكن لها مناص في تبنيه بما أنها وليدة تلك المدارس التي وضعته.

ومن أهم المبادئ التي اعتمدها الأدباء والمحللون، وورثوها عن الشعرية والشكلية والأسلوبية والمدارس اللسانية البنيوية الأخرى في أوربا وأمريكا ما يلي:

1- التحليل القائم على استنتاج العلاقات أو السمات المميزة المستنبطة من خلال مجموع الوظائف المترابطة، بما فيها المركزية والأساسية والفرعية ، في كل عمل أدبي فوظيفة كل عمل هي في اقترانه بالأعمال الأخرى ، إنها علامة مميزة، ومنطلق هذه الطريقة هي فرضية التماثل العميق بين وجوه العلامة[7]. وعرف هذا في المنهج الشكلي لتحليل النصوص الأدبية إلى وحدات عرفت بمصطلح التيمة (thème) أو الموضوع الرئيس كما يسميها توماشفيسكي عندما بيّن أن "العمل بأكمله يمكن أن يكون له موضوعه الرئيس وفي الآن عينه سيملك كل قسم من العمل موضوع الرئيس، وعن طريق هذا التفكيك للعمل إلى وحدات تيمية كبرى نصل في النهاية إلى حدود ما لا يتجزأ وإلى أصغر وأدق عناصر مادة التيمة الوحدة الصغرى (Motif) "[8].

ولما اعتمدت هذه الطريقة في دراسة الحكايات الخرافية الروسية من الناقد الروسي بروب الذي طور مفاهيم المدرسة الشكلية بعد جاكسون، توصل إلى وضع مجموع الوظائف الثابتة في الحكايات الخرافية وفي الدراسات السردية الحديثة كذلك طبقت هذه الطريقة في تحليل العلاقات بين الوحدات السردية لتتوصل إلى تحديد التيمة، وهي الجملة السردية[9].

2- اكتشاف نوع العلاقات التي تربط بين المرجع النصي والمرجع الذي يستند إليه هذا النص، ففي حقل الأدب نبحث في العمل الأدبي لاكتشاف علاقة الواقع الأدبي بالواقع الذي يعيشه الأديب، فالشكلانيون لما قطعوا المسافة بينهما رأوا أن الأديب لا يحاكي الواقع بل يوهم بذلك قارئه من خلال تجريده في رموز الكتابة، لذلك على الناقد الأدبي أن يبحث في لغة الكتابة الأدبية ليكتشف تماسكها وانتظامها المنطقي وإشاراتها الرمزية وقوتها أو ضعفها بعيدا عن الواقع الذي يزعم البعض أنها تعكسه وتعرضه في كتاباتها[10].

3- دمج الرياضيات وقوانينها الحسابية في التحليل الشكلي الأدبي كاستعمالهم لنظرية السلاسل لدراسة النثر الأدبي، واستخدامهم للطرق الإحصائية لدراسة الوزن الشعري. وهذا ما طبقته اللسانيات الحديثة في الدراسات الأسلوبية. وما طبقته الدراسات السردية من علاقات وهندسة في طريقة مربع غريماس السيميائي[11] الذي قام من خلاله بإعادة تحليل الأشكال الأدبية المركزة التعقيد للدلالات التي تتضمنها إلى عناصر بسيطة[12] وذلك بواسطة هذا المربع الذي يدعى بالنموذج التكويني لتجسيد المعنى القائم على ثلاث علاقات منطقية هي كالتالي: "التضاد، التناقض، التضمن"[13] وهو كالتالي:

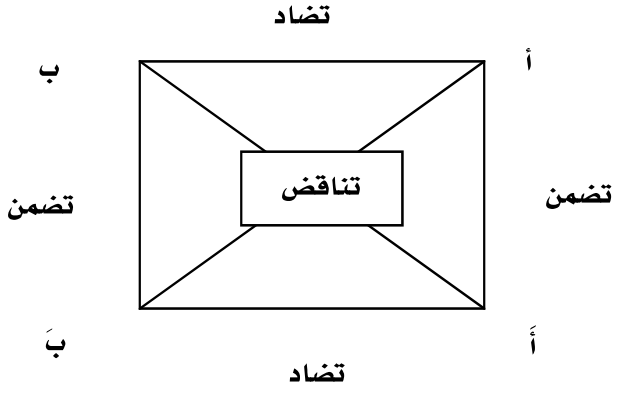

بالإضافة إلى عديد من المبادئ والخطوات المعتمدة في منهج تحليل النصوص الأدبية التي تختلف من جنس أدبي لآخر فخطواته مع السيرة ليست كخطواته مع الخطابة ومع الرسائل، وخطواته الخاصة في تحليل وإبراز أدبية النصوص الشعرية غيرها في النصوص النثرية، فخطوات هذه العملية التحليلية الجديدة في دراسة بنية نص الرسالة كالتالي:

1- وصف النص: من خلال مجموع عوامله التالية :

أ.المرسل

ب.المرسل إليه

ج.الرسالة : التي تتشكل بنيتها من مستويين هما:

- المستوى التلفظي.
- المستوى الملفوظي.

2-.عناصر النص: وهي البنى الثلاث المكونة لنص الرسالة زائد البنية الداخلية:

أ- بنية المقدمة.

ب- بنية العرض.

ج- بنية الخاتمة.

3- البنية الدلالية للرسالة.

فهذه أهم المفاهيم المتعلقة بالمدرسة الشكلية بينا بموجبها تعريف الأدبية لغة واصطلاحا وعرضنا موضوعها ومنهجها وأهم خطواته ومبادئه التي اعتمدها المحللون الأدبيون كما استفادوها من الشعرية والأسلوبية والنقد الجديد ونظرية القراءة والتلقي.

ثانيا : مقاربة تاريخية للأدبية :

ستتبين من خلال هذه المقاربة الاصطلاحية التاريخية المراحل التي تشكلت فيها الأدبية كدراسة مستقلة بذاتها بعد أن انسلت رويدا رويدا من رحم المدارس التي سبقتها إلى الظهور في العالم الغربي، كما تتطرق هذه المقاربة للدراسات العربية التي اعتنت بها قديما وحديثا لتظهر من كل هذا أهم تطوراتها اللغوية والاصطلاحية في الدراسات الغربية والعربية.

1ـ الأدبية في الدراسات النقدية الغربية:

ظهرت الأدبية الشكلية عند الغرب من خلال مطالعات الموروث النقدي الذي خلفته الشعرية ما أدى إلى اعتبارها سليلة الشعرية ووليدتها، باعتبارها الدراسة النسقية للأدب كأدب فهي تعالج قضية ما الأدب؟[14] والقضايا الممكنة المطورة منها: ما هي أشكال وأنواع الأدب؟ وما طبيعة جنس أدبي أو نزعة ما؟ وكيف تنتظم الظواهر غير الأدبية ضمن النصوص الأدبية؟ وغيرها من القضايا المنوطة بدراسة النسق الأدبي، فالشعرية والأدبية تسعيان إلى إيجاد نظرية علمية للأدب.

ويعتبر أرسطو الرائد في دراسات نظرية الأدب، إذ تعود البدايات الأولى لظهور هذه النظرية إليه من خلال كتابه "فن الشعر" حيث يتعرض فيه صاحبه إلى وصف خصائص الأجناس الأدبية في عصره[15].

لذلك فقد كانت للأدبية علاقة وطيدة بالشعرية بحيث استقت منها البروز والوجود وارتوت من منبعها الذي وهبها الحياة والتطور، كما أنها تأسست تحت لوائها، ولم تكتفِ الأدبية بالاستقاء من منابع الشعرية فحسب بل مدت فروعها لتأخذ من دراسات المدرسة الشكلية، ومباحثها فتقاطعت معها منهجيا في أصول شتى على غرار ما فعلت مع الدراسات الأسلوبية ما جعل للأدبية علاقات وطيدة بالشعرية والشكلية والأسلوبية على حد سواء، وهذا ما سنحاول لملمة شمله من خلال إبراز تلك العلاقات.

1-1/ الأدبية والشعرية: بعد اهتمامات أرسطو بالشعرية انتقل الاهتمام بها في العصور اللاحقة إلى ألمانيا خاصة في فترة النقاد والدارسين، والأدباء الرومانسيين من خلال التساؤلات عن مميزات الأدب الخاصة، ذلك الأدب الذي تجسده الكتابات الرومانسية عند كل من الأديبين الشاعرين: شليجل ونوفاليس[16] وغيرهما من الأدباء الألمان. فمن هنا تتضح بوادر تشكل نواة الأدبية في رحم الشعرية انطلاقا من تلك التساؤلات عن مميزات الجنس الأدبي من غيره.

كما أن الأدبية تتقاطع مع الشعرية، حيث يظهر هذا التقاطع جليا في مقطعها الكبير "وإذا كان هدف الأدبية هو علم النص فهي تنطوي تحت الشعرية، وهدفها هو إيجاد نظرية علمية للأدب"[17] وبذلك تقاطعا في مبحث إيجاد نظرية علمية تحكم النصوص الأدبية المختلفة الأجناس. كما هو الشأن في تقاطعها مع الشكلية الروسية.

1- 2/ الأدبية والشكلانية الروسية: تعتبر المدرسة الشكلانية الروسية هي الأخرى من المدارس التي تحددت بها الأدبية وكانت لهذه الأخيرة علاقة وطيدة بها، فقد كانت للشكلانيين الروس جهود في وضع دعائم أولى للأدبية. "فما بين (1915-1916م) طورت مجموعتان من نقاد الأدب الروسي ـ المجموعة الأولى هي حلقة موسكو اللغوية أو اللسانية التي ترأسها جاكوبسون بعد (1915م) والمجموعة الأخرى هي جمعية دراسة اللغة الشعرية التي نشرت مجلة أوبوجاز مفاهيمها ـ منهجا يتناول الأدب عرف بالشكلية (Formalisme) إذ يركز هؤلاء المنظرون انتباههم على الكيفية التي يعمل بها الأدب، أي الأدبية (Literariness) وأيضا على ما يفصل الأدب ويميزه عن أشياء من مثل "الخطاب اليومي، واللغة العادية، أو عن أشكال أخرى من الفن"[18].

فالشكلانية لم تكن مورد إلهام فحسب لنقاد الأدبية، بل كانت موضحة لهم سبيل التعامل مع الأعمال الأدبية، لا سيما لما قدمت لهم أهم دعائم وأسس موضوع الأدبية المتمثل في كيفية عمل الأدب.

كما تزداد العلاقة الرابطة بين الأدبية والشكلية وضوحا، عندما يُماط اللثام عن تلك المبادئ التي وضعها الشكلانيون كمبدأ الغموض في الأعمال الشعرية، وفكرة الإحساس بالغرابة التي تقدمها النصوص الأدبية والفنون، وذلك من خلال اهتمامهم المنصب على السمات الشكلية للأعمال الأدبية عوضا عن مضمون الأعمال "فلقد أكدوا على أن عديدا من الأمور التي ركز عليها النقاد التقليديون مثل- اللغة المجازية (Figurative language) والرموز (Symboles)

والصور (Images) حاضرة في الاستعمال اليومي للغة، ومن ثمة فإنها لم تخلع معنى على مثل هذه الظواهر، ولذلك لم يهتموا إلا بما هو أدبي (literary) وما هو إطار خارجي للأدب (Extra literary)"[19] أما ما خرج عن ذلك فقد أبعدوه عن حقل دراستهم فاهتمامهم بما هو أدبي صار اهتماما للأدبية بعد ذلك.

بالإضافة إلى نظرة الأدبية للأشياء من منظور جديد تجسده الأعمال الفنية الأدبية بإتباعها طرائق إبداعية تثير الاندهاش وتحقق المتعة، هو ذاته أحد مفاهيم الشكلية بحيث "طور فيكتور شكلوفسكي (Victor Shiklovisky)- أحد أهم النقاد الشكلانيين- فكرة أن الأدب والفنون بصفة عامة يجب أن تعطي إحساسا بالغرابة (Ostraneri/Make strange في الروسية) وتبعد الناس عن المألوف (Defamiliarize) وتحررهم مما تعودوا عليه من مدركات الأشياء، وبذلك تعيننا على أن نرى الأشياء من منظور جديد"[20].

وتزيد علاقة الأدبية بالشكلية الروسية وضوحا من خلال تقارب المدرستين حول فصل النصوص الأدبية عن كل العوامل الخارجية والسياقية من سيرة ذاتية أو حياة اجتماعية وفلسفية ودين، متجهتين أكثر إلى ربط مفهوم النصوص بالبحث عن الأدبية[21] وهذا كله ظهر جليا في بحوث كل من جاكبسون وبروب وشكلوفسكي.

1- 3/ الأدبية والأسلوبية: لم تكتف الأدبية في بناء هيكلها ومنطقها بالأخذ من الشعرية والشكلية الروسية فحسب، بل مدت يدها لتلتقط من ثمار المدرسة الأسلوبية (La stylistique) بحيث تتقاطع معها في الوحدات الصغرى. "وإن كان هدف الأسلوبية هو اللغة، فإن هدف الأدبية هو علم النص، فهي تستعين بها وتتجاوزها وكلتاهما في النهاية تنضويان تحت الشعرية وهدفها هو إيجاد نظرية علمية للأدب"[22] كما سبق القول.

1-4/ الأدبية بين أحضان المدرسة المورفولوجية بألمانيا : لما كانت الأدبية وليدة الشعرية فقد عرفت هذه الأخيرة رواجا هائلا في الساحة النقدية بين أرجاء ألمانيا. إذ انتقلت إليها في فترة الإبداع الرومانسي الذي عرف بفترة الرومانسيين وتجسدت الدراسات الشعرية فيها من خلال تساؤلات النقاد الألمان عن مميزات الأدب الخاصة، مما عجّل بظهور المدرسة المورفولوجية فيها فقد "ظهرت المدرسة المورفولوجية بألمانيا، واعتمدت على التراث الأدبي للشاعر غوته (Gotte)

رافضة للنزعة التاريخية ثم اهتمت بوصف أنواع الأدبية، وأساليب الكتابة في مستويات القراءة"[23] فنظرية القراءة أو نظرية التلقي كما يصطلح عليها بعض الدارسين بألمانيا كانت وليدة المدرسة المورفولوجية.

وهذه النظرية اهتمت بمباحث الأدبية كثيرا، إذ سعت جاهدة لإبراز مميزات وخصائص الأجناس الأدبية من خلال اختلاف أساليب كتابتها، وتنوعها في مستويات تلقي القراء لها، بالإضافة إلى سعي هذه النظرية إلى بلورة معنى الأدبية من خلال الإبداع الذي يشارك فيه الأديب والقارئ -على حد سواء- بعد أن كانت تطرح على نفسها عدة تساؤلات حول هذه القضية المتعلقة بإبداع النصوص الأدبية، ومن بين تلك الأسئلة التي كانت تطرحها نظرية التلقي أو نظرية القراءة هذا السؤال الجوهري الذي شكل محتواه مجالا خصبا للدراسة النقدية لدى المدرسة المورفولوجية وهو:

"هل النص هو الذي أبدعه الروائي؟ أم أن للقراء دورا في إبداعه كما رأى بعض منظري نظرية القراءة؟"[24] هذه النظرية والتي تطورت مع منظرين مثل هانز روبرت جوس (Hans Robert Jouss) وولفنجانج أيزر (Wolfgang Iser) وكانا أستاذين بجامعة كونستانس بألمانيا. وقد ركزا على الدور الذي يلعبه الجمهور في قراءة النصوص الأدبية، حيث قال أيزر (Iser) وذلك في عام (1988م): "عند التفكير في العمل الأدبي، تركز النظرية الفينومينولوجية تركيزا تاما على الفكرة التي تقول إن على المرء ألا يدخل في اعتباره النص الفعلي فحسب، بل كذلك - وبنفس القدر- يهتم بالأفعال المتضمنة في الاستجابة للنص ولذلك يتصدى رومان إنجاردن (Roman Ingarden) لبنية النص الأدبي بالطرق التي يمكن بها أن يتحقق هذا النص. فالنص في ذاته يقدم زوايا نظر تخطيطية من خلالها يمكن للنص أن يتكشّف، ويتبدّى إلا أن الحضور الفعلي لا يتم إلا في فعل التحقق"[25] فهنا أيزر يوضح أو يلمح للدور الذي يلعبه المتلقي في تحقيق النص وإنجازه، فالجمهور المتلقي لا سيما إذا كان ما يتلقاه رواية أو قصة أو حكاية يلعب دورا مهما فيما يمكن أن نسميه تحقق النص (Réalisation de texte).

وهذا ما استفادت منه الأدبية كما استفادت من تمييز أيزر (Iser) بين قطبين: "الأول فني ويشير إلى العمل الذي يتم بواسطة القارئ (المتلقي)"[26] هذا الأخير الذي يشكل

القطب الثاني الجمالي، فكأنه أراد القول أن الأعمال الأدبية لا يكون لها وجود إلا بعد قراءتها، وإدراكها من طرف القارئ وهنا يقول باركلي في شعاره: الموجود هو المدرك / (To be is to be perceived).

1- 5/ الأدبية بين أحضان مدرسة النقد الجديد : ساهمت مدرسة النقد الجديد بشكل فعال في تطوير مباحث أدبية لا تقل أهمية عما وضعته الشعرية، والأسلوبية والمورفولوجية أو التلقي في رحاب الأدبية. فهذه المدرسة الأنجلو سكسونية التي تميزت "بطرحها لقضايا نقدية جوهرية تعد من صميم الأدبية كالصورة الشعرية، وأنماطها المختلفة كالصور الشعرية الغامضة والساخرة والمتناقضة وخاصة في أبحاث كل من كلينث بروكس (1994م) وويليام وِيسْمات (1975م) (Prockes and Whesmat) كما يعتبر كتاب "نظرية الأدب" للكاتبين (رينيه وليك، وأوستين وارين) من أبرز أعمال وبحوث هذه المدرسة."[27] التي أخذت منها الأدبية الشيء الكثير.

كما امتدت اهتمامات المدارس الأوربية بالمباحث الأدبية بعد أن هيمنت تحليلات باشلار النفسية الموسعة بفرنسا وكانت سيطرتها جلية في تلك الفترة، بالإضافة إلى تحليلات سارتر الوجودية النفسية، وهذا يعتبر من أسباب "تأخر وضوح الأدبية بتأخر وضوح مفهوم الشعرية، وتبلورها في أذهان النقاد الفرنسيين، وكان ذلك حوالي النصف الثاني من القرن العشرين بفضل تطور دراسات علم السلالات البشرية مع "ليفي شتراوس"[28] ما أدى إلى ظهور المنهج البنيوي الذي تمحورت دراساته البنيوية، في الفترة المتأخرة من القرن العشرين[29] حول البنيات السردية، ونظم الخطاب الأدبي وآلياته المختلفة مع رولان بارت وجوليا كريستيفا وجرار جينات وتودوروف.

مما سبق تتضح لنا علاقة الأدبية الشكلية تاريخيا بالدراسات النقدية الغربية بحيث قامت الشعرية بإنجابها والأسلوبية أفادتها كما أفادتها نظرية التلقي الألمانية، ومدرسة النقد الجديد بإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، كما أفادها التحليل البنيوي بفرنسا بعد تأخر ظهورها فيها.

2/ الأدبية في الدراسات العربية:

ظهرت الدراسات حول الأدبية عند العرب في زمن مبكر إذ "تمحورت الدراسات حول الأدبية والشكل الأدبي، ووصلت منتهاها مع عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم التي تعد القاسم المشترك لأي خطاب ولأي نوع أدبي، ومع حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" الذي هو استيعاب لنظريات أرسطو، ولجهود البلاغة العربية"[30] كما مثلتها قبلهما دراسات ابن رشيق الشعرية في كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده".

2-1/ الأدبية عند ابن رشيق القيرواني: اهتم ابن رشيق (456هـ) بالشعر كثيرا ووضع فيه مؤلفا ضخما وسماه بالعمدة تناول من خلاله تصنيف الشعر وأغراضه، وأدبيته وخصائص كل فن منه، كما تطرق لفنون الأدب النثري وعلاقتها بالشعر، فتحدث عن علاقة الخطابة بالشعر، وعلاقة الرسالة به بالإضافة إلى تحديد الجنس النثري والشعري، واهتم كثيرا بموضوعات الشعر وبحوره وتطرق لنقده، وأسهب الكلام في حكم المفاضلة بين الأجناس والموضوعات والأغراض والشعراء، حيث دافع ابن رشيق عن الشعر، وردّ حجج الذين ذموه وفضلوا النثر عليه انطلاقا "من عامل ديني تعلل به المرزوقي وابن الأثير والقلقشندي، لكن هذه الحجة لم تسلم لهم إذ سعى لدفعها نقاد آخرون كابن وهب وابن رشيق وعبد القاهر الجرجاني"[31]. كما تحدث عن دور الشعر في الأخلاق، وأهميته في المجتمع، فالقبيلة العربية "كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس"[32].

2-2/ الأدبية ونظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني: يعتبر عبد القاهر الجرجاني (474 هـ) من المساندين لابن رشيق القيرواني في الدفاع عن الشعر، وذلك عند تناوله لفنون ما ينقسم إليه الكلام ومجاري الخطاب في نظرية النظم التي حواها مؤلفه "دلائل الإعجاز" بحيث تناول فيه قضايا نقدية عديدة في مجال الشعرية والأجناس الأدبية، وقد رد على القائلين بأفضلية النثر على الشعر في سياق المفاضلة بين الأنواع الأدبية، انطلاقا من تحديده للعوامل الأربعة التي تداخلت في ترجيحهم للأفضل كالعامل الديني، والعامل الأخلاقي، والعامل الاجتماعي، والعامل الأسلوبي.

وبذلك كان دفاعه دفاعا مستميتا، تحدث فيه عبد القاهر الجرجاني عن الشعر باعتباره مفتاحا لإدراك بلاغة القرآن[33] "وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت، وجهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا شك أنه كان ميدان القوم إذا تجاوروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التي كان بها التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض كان الصاد عن ذلك، صادا عن أن تعرف حجة الله تعالى"[34]. فهذا دفاع عن الشعر الذي ندرك به بلاغة القرآن.

2-3/ الأدبية عند حازم القرطاجني: لم يدخر حازم القرطاجني (684هـ) جهدا بالمساهمة في الدراسات الأدبية العربية لاسيما في بحوثه حول الأجناس الأدبية والأغراض الشعرية، وعلاقة الأشكال الأدبية بالمعاني والأغراض، وطريقة توظيفهما لعنصري الإيجاز والإطالة، كما تطرق إلى قضية شرف المعنى، ومفهوم الغرض ما عبر عنه بجهات الشعر، ويعتبر مبحث الأغراض من مباحث الأدبية التي نحن بصدد الحديث عنها: - فكيف يحقق النص الغرض؟ وما دور المتلقي في ذلك التحقيق؟

يرى توما شفسكي أنه من خلال السيرورة الفنية، تتمازج الجمل المفردة فيما بينها حسب معانيها، محققة بذلك بناءً محددا تتواجد فيه محددة بواسطة فكرة أو غرض مشترك وإن دلالات العناصر المفردة للعمل تشكل وحدة هي الغرض، واختيار الغرض هو أمر وثيق الصلة بالقبول الذي قد نجده لدى القارئ. وإن صورة القارئ تكون حاضرة باستمرار في وعي الكاتب حتى إن كانت مجردة، أو تطلب من الكاتب أن يفترض على نفسه أن يكون قارئ عمله[35]. وقد اقترب في نظرته هذه إلى مباحث حازم كثيرا. وقد أطلق حازم القرطاجني على مصطلح الأغراض عدة مصطلحات مختلفة أثرى بها مباحث الأدبية في هذا المجال، ومن بينها: "فنون الأغراض، وفنون الطرق الشعرية وأمهات الطرق الشعرية، والطريق الشعري"[36] وهذا المبحث الأدبي يمكن اختصاره في الرسم الذي يوضح "تولد الأغراض من قيم أخلاقية وممارسات اجتماعية كالتالي:

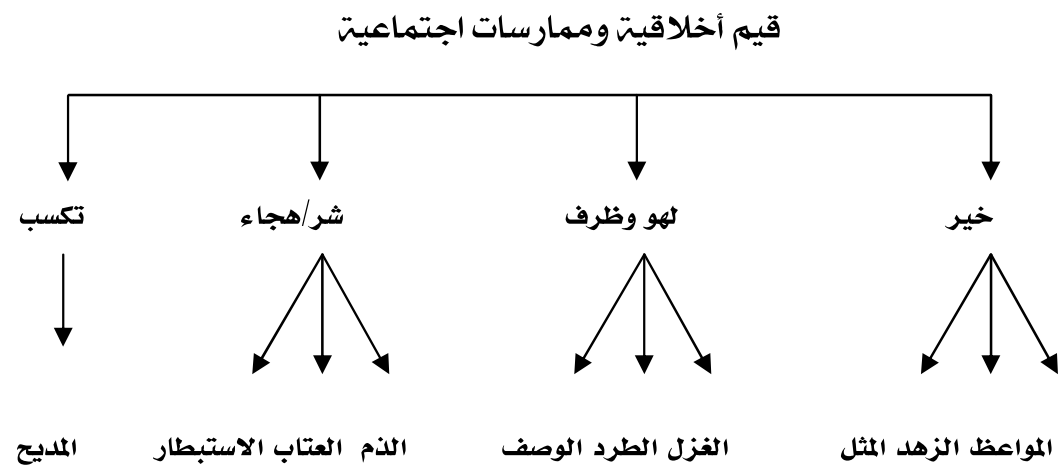

ـ مشجر الأغراض الشعرية ـ

2- 4/ الأدبية والدراسة النقدية العربية الحديثة والمعاصرة: أما في العصر الحديث وبعد اهتمام مجموعة من النقاد العرب بالنقد الغربي ظهر سعي حثيث من هؤلاء النقاد في مجال الدراسات الأدبية، حيث حاولت كتاباتهم أن تبرز سمات هذا الاهتمام، وهكذا ظهر السعي المتواصل والمدعو فلسفيا[37] إلى اعتبار النص بنية مستقلة بنفسها لا عن كاتبها فحسب، وإنما عن غيرها من أشكال الكتابة الأخرى.

وقد حمل لواء هذه الدراسات نخبة من النقاد والناقدات العرب أولوا حقل الأدبية اهتماما وأثروا مباحثه بالعديد من الآراء والمواضيع النقدية التي زادت المكتبة الأدبية العربية غنى وثقافة وفكرا، ومن هؤلاء النقاد الأدبيين والأساتذة الباحثين نذكر على سبيل المثال لا الحصر: محمد مفتاح، ومصطفى ناصف، وعبد المالك مرتاض، ونبيلة إبراهيم، ويمنى العيد، وعبد السلام المسدي، وعبد الله الغذامي، وصلاح فضل. أما دراساتهم الأدبية المختلفة والمتنوعة فقد كانت حول الأسلوب والبنيات السردية وتحليل الخطاب، والتخييل والزمن والرؤى، والبنى الكبرى والبنى الصغرى... إلخ.

وهكذا حاولت الدراسات النقدية العربية الحديثة والمعاصرة في مجال الأدبية ـ من خلال تلك المقاربات مع الدراسات البنيوية الغربية المعاصرة ـ أن تصل إلى بلورة نقد قادر على قراءة "الأدبية النصية" من منظور يتماشى ومعطيات الفكر العربي"[38].

ثالثا: موضوع الأدبية:

1- تحديد القيمة الجمالية للنص: كانت الدراسات السياقية القديمة تساوي بين الأدب ومراجعه السياقية فتهتم بالمراجع النصية على حساب النص ذاته، حتى ظهرت الأدبية الشكلانية فقامت بعزل النص عن المرجع، لأن الأدبية تأثرت كثيرا بالمنهج البنيوي، هذا المنهج الذي يتعامل مع النص كبنية مستقلة بذاتها، وفي منهجه التحليلي للنصوص الأدبية يتبع خطوات أربع هي كالتالي[39]:

1-1/ تحديد البنية: النظر إلى موضوع البحث كبنية، أي كموضوع مستقل بذاته عن مراجعه السياقية غير الفاعلة فيه والمؤثرة به.

1- 2/ عزل البنية: عزل داخل النص عن خارجه وأرشيفه الثقافي الخاص المتمثل في القيم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، لأن العلاقة بين الداخل والخارج علاقة انفصام لا علاقة تواصل كما قال البعض.

1- 3/ تحليل البنية: ويبدأ باستخراج البنية الدلالية للنص، كما نكشف عما في النص من علاقات.

1- 4/ تركيب البنية: إعادة تكوين وتجميع الأجزاء والعناصر التي وصل إليها التحليل بطريقة تبرز قوانين قيامها بوظائفها.

فالأدبية استعارت من البنيوية هذه الخطوة، التي تعزل النص الأدبي عن مرجعه الثقافي الخاص، كما أنها "وضعت حدا للمساواة القائمة بين الأدب ومراجعه في حقل الدراسات الأدبية (تاريخية، اجتماعية، سيكولوجية، سياسية) فهي بخلاف هذه الدراسات لا تسعى إلى قراءة المراجع النصية أو تهميشها، بل إلى قراءة أدبية النص.

2- أدبية النص: والأدبية باستعارتها لآليات البحث البنيوية فهي مقاربة باطنية للنص في نظامه الأدبي أي تلك العناصر التي يمكن اعتبارها ماثلة في النص محددة لجنسه الفني، ومكيفة لطبيعة تكوينه، وموجهة لمدى كفاءته في أداء وظيفته الجمالية على وجه التحديد"[40] – فكيف تحدد القيمة الجمالية للنص؟

بما أن الشكلية الأدبية ـ كما سبق القول- تتقاطع مع كل من الشعرية أو كما يصطلح عليها البعض بالبويطيقا، والأسلوبية حيث سيظهر التقاطع مع الأولى في مقطعها الكبير، أما التقاطع مع الثانية فيظهر في الوحدات الصغرى، وبما أن هدف الأدبية هو علم النص وكلتاهما تنضويان تحت الشعرية وهدفها إيجاد نظرية لعلم الأدب، ومن هنا فإن "الجواب عن السؤال المطروح هو إيجاد مجموع المقاييس التي تجعل من خطاب ما خطابا أدبيا وهذا ما جعل بعض الدارسين المحدثين يحددون بشكل أدق موضوع الأدبية الذي سيصبح هو الخطاب الأدبي وليس الأدب بوجه عام"[41].

فالقيمة الجمالية للنص الأدبي تحدد من خلال إيجاد مجموع تلك المقاييس الفنية التي تشكل عند اجتماعها الخطاب الأدبي.

الإحالات:

(1)- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997م ص14.

(2)- آرثر برجر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، الرباط، ط1 2003، ص48، 49.

(3)- فيكتور إيرلنج: الشكلانية الروسية، ترجمة: الولي محمد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1 2000م، ص14.

(4)- يمنى العيد: في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3، 1985م، ص64.

(5)- المرجع نفسه، ص64، 65.

(6)- المرجع نفسه، ص68.

(7)- ينظر: تزفيطان تودوروف، رولان بارث، مارك أنجينو، أمبرتو اكسر: في أصول الخطاب النقدي الحديث، ترجمة: أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1987م، ص16.

(8)- المرجع نفسه، ص17.

(9)- تزفيطان تودوروف: الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987م، ص67، 68.

(10)- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، (دت)، ص90.

(11)- تزفيطان وآخرون: في أصول الخطاب النقدي الجديد، ص29.

(12)- جان كلود كوكي: نص المقدمة، ترجمة: رشيد بن مالك: السيميائية بين النظرية والتطبيق، معهد الثقافة الشعبية، تلمسان الجزائر، ط1، 1995م، ص70.

(13)- سامي سويدان: في دلالية القصص وشعرية السرد، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص109.

(14)- شلوميت ريمون كنعان: التخييل القصصي الشعرية المعاصرة، ترجمة: لحسن أحمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1 1995م، ص10.

(15)- فاضل ثامر: اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994م، ص101.

(16)- تزفيطان تودوروف: الشعرية، ص14.

(17)- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص14.

(18)- أرثر أيزا برجر: النقد الثقافي، ص70.

(19)- المرجع نفسه، ص70.

(20)- المرجع نفسه، ص71.

(21)- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص83 وما بعدها.

(22)- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص14.

(23)- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط2، 1980م، ص180، 181.

(24)- آرثر أيزر برجر: النقد الثقافي، ص49.

(25)- المرجع نفسه، ص57، 58.

(26)- المرجع نفسه، ص58.

(27)- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص140، 141.

(28)- ميشال فوكو: مقال البنيوية و التحليل الأدبي، ترجمة: محمد الخماسي، مجلة العرب والفكر العالمي، عدد خاص، النقد والمصطلح النقدي، العدد الأول، بيروت، 1988م، ص18.

(29)- المرجع نفسه، ص19.

(30)- توفيق الزيدي: تجليات مفهوم الأدبية في التراث النقدي، سراس للنشر، تونس، ط1، 1985م، ص169.

(31)- رشيد يحياوي: الشعرية العربية الأنواع و الأغراض، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م، ص109.

(32)- الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، المجلد الأول، ص65.

(33)- رشيد يحياوي: المرجع نفسه، ص 109.

(34)- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1984م، ص8، 9.

(35)- توما شفسكي: نظرية الأغراض ضمن المنهج الشكلي، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1 1982م، ص175.

(36)- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص25.

(37)- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي الأدبي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط2 2000م، ص259.

(38)- يمنى العيد: في معرفة النص، ص39، 40.

(39)- محمد الواسطي: أسرار النص مقاربة بنيوية منفتحة، آنفو- برانت، فاس، المغرب، ط1، 2003م، ص44 وما بعدها.

(40)- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ص88.

(41)- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، ص14.